السيّد الإصفهاني
ودوره في دحْرِ الحملة التنصيريّة على العراق

الشيخ د. جعفر المهاجر

المعروف عن السيّد الإصفهاني رحمات الله تعالى عليه أنه كان ، إلى مكانته العلميّة العالية ، رجلَ إدارةٍ من الطراز الأوّل . كانت ميزانيّته الماليّة السنويّة تُضارع ميزانيّةَ دولةٍ صغيرة في ذلك الأوان . كان يُشرف على إدارتها بنفسه ، في الإنفاق على الحوزة العلميّة الكبيرة في النجف بمُدرّسيها وطُلاّبها ، وفي رعاية الشؤون الدينيّة لأبنائه في الأقطار. وهو أوّلُ من عمّم سياسة الوكلاء عنه في كافة البلدان الشيعيّة . بحيث يتأتّى بواسطتهم تقديم الرعاية المرجعيّة لهم . ويكون هو على اطّلاعٍ وافٍ على ما يهمّه من شؤونهم .

لكنّ دوره التاريخي في التصدّي للحملة التنصيريّة التي عملت في جنوب العراق في أيامه ، بل وحتى أصل ذكر تلك الحملة وأعمالها ، هما فصلٌ مجهولٌ من سيرته ومن التاريخ المكتوب للعراق ، سواءٌ في ذلك ما كتبه المؤرّخون الغربيّون والعراقيّون . ولذلك أسبابه طبعاً . من ذلك ، فيما أخال ، أن الغرب قد هُزم في تلك المعركة هزيمةً نكراء ، بعد أن سجّل نجاحاً مؤقّتاً كبيراً ، ظن أربابُه أنه نهائيّ . وأمّا العراق ومؤرّخوه فتلك نقطةٌ غير مُشرّفةٍ من تاريخه الحديث . واختراقٌ وقِحٌ لنسيجه الديني . السياسي . والمعروف أن المؤرّخين عموماً يتهرّبون من الوقوف على مواطن الخيبة والهوان. لا نستثني من هذه الملاحظة إلا ماكتبه مؤرّخان عراقيّان مسيحيّان هم حارث غنيمة ، الذي كتب مقالةً تحت عنوان " البروتستانت والإنجيليّون في العراق " . نشرها في مجلّة (بين النهرين) العراقيّة العدد / ٦٨ ، وقريبه يوسف غنيمة في كتابه (الدرّة اليتيمة في تاريخ أُسرة غنيمة) ، الذي حقّقه وأكمله حارث غنيمة نفسه ، وطبعه على الحاسوب في بغداد سنة ١٩٩١م . ثم مقالةٌ للدكتور المصري عبد العزيز نوّار ، على الإرساليّات التبشيريّة في العراق ، منشورة في مجلّة (الثقافة) العراقيّة ، أغناها في كتابه " تاريخ العراق الحديث " الذي طُبع في مصر سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م . وهذه هي المصادر الوحيدة التي وقعنا عليها فيما يخصّ هذا الموضوع الهامّ . وأمّا بالنسبة لسيرة السيّد ، فإن سببَ خفاءِ هذا الجزء من سيرته يرجع إلى أن مساعيه في هذا النطاق تمّتْ تحت ستارٍ مُحكَمٍ من السّريّة ، للأسباب التي سنوردها بعد قليل .

والتبشير المسيحي في العراق بدأ إنكليزيّاً بروتستانيّاً . افتتحته عدّة إرساليّات ، اختارت العمل بين المسيحيين الأرمن والأشوريين والكلدانيين ، ابتغاء تحويلهم إلى مذهبها . بسبب نفور المسلمين الشديد منهم . ووفَدَ إلى بغداد مُبشّرون إنكليز تابعون للكنيسة الانكليكانيّة. أنشأوا

مكتبةً ومطبعةً ومدرسةً للبنين وأُخرى للبنات . وافتتحت عيادةً خارجيّةً ، طوّرتها إلى مستشفى صغير. ومدّت نشاطها إلى الحلّة والبصرة والموصل . لكنهم أوقفوا كلّ نشاطٍ لهم بعد ثورة العشرين ، بسبب تنامي الشعور الوطني المُعادي لبريطانيا .

في الوقت نفسه أُسّست في أميركا منظّمةٌ تبشيريّة سُمّيت " الإرساليّة العربيّة " ليس لأن رجالها كانوا من العرب ، بل لأنها وضعت نصبَ عينيها العملَ في البلاد العربيّة ، وخصوصاً في العراق والسودان . فأنشأت محطّةً أُولى لها في البصرة . ومنها انطلقتْ إلى العِمارة والناصريّة . كما شيّدتْ في البصرة " مستشفى لنسنج التذكاري " ، ثم كنيسة . وبعد أن وضعت الحرب العالميّة الأُولى أوزارها نقلوا المستشفى إلى العمارة . ثم أنشأوا فيها مدرستين حملتا اسم " مدرسة الرّجاء العالي للبنين " و " مدرسة الرجاء العالي للبنات " . كان مُستوى الدراسة فيهما عالياً . ولذلك فقد جذبتا أبناء الميسورين . فضلاً عن كنيسة ومطبعة ومراكز لتوزيع الكتب التبشيريّة . ومنطقةً معزولةً لمُعالجة المُصابين بمرض الجُذام . كان يعمل فيها جميعها عشراتُ المُرسَلين . كلٌّ في المجال الذي هُيّئ له ودُرّب عليه . وكلّ تلك المؤسسات المُتقدّمة ممّا لم تالفه أو تنعُم بمثله ، تجهيزاً وإعداداً ، مناطق الجنوب العراقي الفقير، التي كانت في حالةٍ عميمةٍ من التخلُّف .

من الواضح أن العمل التنصيريّ قد صبّ جهوده على جنوب العراق بسبب حالة التخلّف والفقر الشديدَين اللذين كان يُعاني منهما . فهو بحاضرتيَه العِمارة والناصريّة منطقةٌ زراعيّةٌ خصبةٌ . ولكنّ أراضيه الشاسعة بمياهها الوفيرة اعتُبرت أملاكاً أميريّة ، أي ملكاً للدولة . فكانت تُلزّم تلزيماً من قِبَلها لحفنةٍ من الزعماء العشائريين ، لقاء بدلٍ ماليّ . ليُلزّمها هؤلاء إلى المُزارعين ، لقاءَ مُقاسمتهم على محاصيلها . بحيث لايبقى لهؤلاء المساكين إلا النّزرُ القليل الذي لا يُغني من جوع . وهذا يُلخّصُ مُجمَلَ علاقة الدولة بسُكّانها . أي من دون أدنى اهتمام منها أو عنايةٍ بالحدّ الأدنى من التقدمات . فلم يكُن فيها اي مرافق صحيّة ولا مؤسّسات تعليميّة . فتوطّنت فيها أوبئةُ السُلّ والملاريا والتراخوما . وسادت الأُمّيّة .

ذلك الوضعُ المُزري هو الذي عملتْ عليه واستفادتْ منه تلك المؤسّسات التنصيريّة . فطفقت تُقدّم عطاياها لأولئك المساكين ، الذين كانوا في وضعٍ أدنى من أن يُدركوا الغرض الاستعماري الخبئ وراء تلك الهبات السّخيّة : مستشفى يُعالج المرضى مجّاناً ، ومدارس مُتقدّمة ، ومآدب سخيّة مصحوبة دائماً بقداديس باهرة ، فضلاً عن تقدماتٍ ماديّة للمُحتاجين . ومطبعة ومكتبة توزّع النشريّات المسيحيّة على القلّة القارئة مجاناً .

هكذا اكتسحتْ الحملةُ التنصيريّةُ مدينة العِمارة ومنطقتها . حتى لقد روى لي شاهدُ عيان ، أنه على أثر إحدى تلك المآدب السخيّة وقُدّاسٍ باهر مصحوبٍ بالأضواء الساطعة والموسيقى

، وقف أحدُ المُبشّرين وبيده مصحفٌ شريف ، رفعه بيده ليراه الحاضرون . ثم انهال عليه تمزيقاً وسط سكوت الحاضرين .

والعجيب أن كلّ ذلك العمل قد تمّ بصمتٍ ودون أي اعتراضٍ من أحد ، لا من الناس ولا من الزعماء . ذلك أن أي اعتراضٍ شعبي كان مرهوناً بإرادة الزعماء العشائريين ذوي السّطوة والنفوذ المُطلق على الناس كافة . لكن إرادة هؤلاء كانت رهينةً بدورها لسُلطة الاحتلال ، التي تملك حق انتزاع تلزيم الأراضي من كلّ زعيمٍ لا يخضع لسياستها . وممّا هو في غنىً عن البيان أن العمل التنصيريّ كان يحصل بالرعاية التامّة للاحتلال . ودائماً كان الاستعمار المباشر يعتمدُ على المُبشّر، الذي يملك وحدَه أن يمنحه قاعدةً بشريّةً تتعاطف معه ، لِما بينها وبينه من علاقةٍ بالدين . ودائماً كان المُبشّر، العامل على نشر دين المُستعمر، عنصراً اساسيّاً في تثبيت الاستعمار.

لكن السؤال الكبير، الذي لا نجِد عليه جواباً شافياً ، في كلّ ما وصلنا عن تلك الأيّام الشِّداد هو : لماذا لم نرَ أدنى مُبادرة من علماء المنطقة ، او من الذين ينزلون النجف ويرجعون بأصولهم إلى المنطقة المنكوبة ، في اتجاه مقاومة هذا الاكتساح الهائل ؟

ربما كان الجواب كامناً في الظرف السياسي الذي كان يُعاني منه العراق المُحتلّ ، الذي نعرف أنه كان يبسط سُلطاناً شاملاً على كافّة مُقدّرات البلد . ولم تكُن السُلطةُ المحلّيّة إلا ظلاًّ له . خصوصاً وأن ثورة العشرين الكُبرى قد استنفدتْ طاقة الشعب العراقي ، وفشلُها كشَفَ مواطن الضعف الكبيرة في نسيجه الاجتماعي . السياسي . وهذا سببٌ كافٍ لإحباط عزيمة الرجال .

هكذا بات أيُ عمل إنقاذي يتوقّفُ على بادرةٍ من النجف ، وبالتحديد من كبيرها آنذاك السيّد الإصفهاني . ونحن نعرفُ إجمالاً أنه عمل كلّ ما في وسعه في هذا السبيل . وأن العمل قد تكلّل بعد سنوات بالنجاح التام ، فأقلع المُبشّرون تاركين المؤسّسات الكبيرة التي أنشأوها في العِمارة تبكي مَن بناها ، ويعسُرُ التفصيل . ذلك أن قسماً كبيراً وهاماً من دور السيّد في هذا النطاق قد تمّ تحت ستارٍ مُحكَمٍ من التكتُّم . فرضته ضرورة العمل في مقاومة الاكتساح التنصيري ، دون استفزاز سُلطة الاحتلال وظلّها السُلطة المحلّيّة . خشيةَ أن يؤدّي الاستفزاز إلى خروج أو إخراج الأمر عن السيطرة كُلّيّاً ، تحت شعارٍ أو غيره .

في محفوظاتنا الكثيرة من وقائع تلك الأيام ، أن السيّدَ الإصفهاني ، بعد إعمال الفكر في سُبُلِ العمل لمعالجة الوضع الذي أنشأه المُبشّرون في العِمارة ، رماهم بتلميذه الأثير جدّنا الشيخ حبيب . الذي كان ينزل آنذاك مدينة الكوت ، غير البعيدة عن العِمارة . فانتقل إليها حيث خاض معركةً حاميةً مع التنصير واربابه . كان ميدانها الأوّل وُجدانُ الناس ، الذي تسلّل إليه المُبشّرون تحت ستار الإحسان . ثم بإنشاء جملة من المؤسّسات الصحيّة والتعليميّة والتبليغيّة ، في مقابل مؤسّسات المُبشّرين . ممّا يُشكّل بمجمله درساً حقيقاً بأن يُقرأ ويُستعاد ، بما فيه من شجاعةٍ

ودأبٍ وذكاء وحُسنَ تدبير. وذلك بالدّعم الكامل ماديّاً ومعنويّاً من أستاذه . وقد روينا قصّة تلك الأيّام الفاصلة ، التي انتهتْ بالهزيمة الكاملة للمشروع التنصيري ، في كتابنا (المهاجر العاملي الشيخ حبيب آل إبراهيم) .

ممّا لا ريب فيه أنه لولا ذلك لكان للعراق اليومَ وجهٌ آخَر. ولنأخذ العِبرة من جنوب السودان ، الذي خضع لحملةٍ تنصيريّةٍ مُشابهة ، في الفترة الزمنيّة نفسها ، ومن الإرساليّة التبشيريّة نفسها أيضاً . ولكنها هناك لم يُتح لها رجلان من معدن السيّد الإصفهاني والشيخ حبيب يتصدّيان لها ويوقفانها عند حدّها . فكانت النتيجة ما نراه حتى اليوم ، حيث تحوّلت الجماعات المُتنصّرة إلى بؤرة فتن . وذريعةً لا تُستنفد للتدخّل الاستعماري المُباشر في شؤون البلد . وباباً مُشرعاً على مُسلسلٍ من الفِتَن المتواصلة. يدخل منه كلّ طامعٍ بالثروات الهائلة للسودان.

—